

الاتجاه النقدي عند ابن رشيق القيرواني في عمدته

د. خليل محمد عثمان بودوفو وأحمد جوب دام

المقدمة

لعل ابن رشيق من أبرز أعلام الأدب والنقد الذين وضعوا الأسس العامة للنقد العربي القديم، وذلك لاتجاهاته الفنية نحو الدراسات الأدبية والنقدية من دون النقد بأديب أو عصر أو بيئة، تهدف هذه الورقة دراسة كتاب العمدة التي يتمثل فكرة ابن رشيق في رصد الآراء النقدية من الجاهلية حتى العصر الذي عاش فيه، ولا نبالغ إذا قلنا إن كتاب العمدة أسهم كثيرا في تطور النقد العربي القديم والحديث، ولهذا تتركز هذه الورقة على أهم القضايا النقدية الواردة في الكتاب.

ابن رشيق القيرواني في سطور

هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، ولد في المسيلة في المغرب سنة ٣٩٠هـ - ١٠٠٠م،^١ وقيل بالمحمدية، لوالد مملوك من موالى الأزدي، احترف مهنة الصياغة، وأدب ابنه عليها، فقرأ الأدب منذ صغره، وقرض الشعر، ثم تآقت نفسه إلى التزيد منه، فرحل إلى القيروان سنة ٤٠٦هـ، ومدح صاحبها "المعز بن اديس بن المنصور"^٢ اشتهر فيها، وبرز نجمه، وعلا شأنه، ولما حدثت الفتنة في القيروان قتل العرب ملوكها وأهلها، انتقل ابن رشيق إلى صقلية وأقام بقرية مازر، وهي إحدى مدنها، إلى أن مات بها سنة ٤٦٣هـ.^٣

كانت القيروان أيام ابن رشيق مركز الحضارة العربية في الشمال الإفريقي يجتمع بها عدد كبير من العلماء والأدباء، كأبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز النحوي، وعبد الكريم بن إبراهيم النهشلي، وأبي عبد الله محمد بن أبي سعيد ابن شرف القيرواني، وأبي إسحاق الحصري وغيرهم أخذ ابن رشيق عن هؤلاء وعن أمثالهم كأبي عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم السمين^٤ كانت بين ابن رشيق وابن شرف القيرواني صداقة ودية قبل أن يفسد الشيطان بينهما، وصنف ابن رشيق عدة رسائل في مهاجمة ابن شرف منها: رسالة "ساجور الكلب"، ورسالة "نجح الطلب"، "والرسالة المنقوصة"، وكتاب "قراضة الذهب"، ولابن رشيق

مصنفات أخرى غير هذه منها: "أنموذج الزمان في شعراء القيروان"، وكتاب "العمدة" الذي يشهد بسلامة طبع ابن رشيق، وصحة آرائه النقدية.

تقديم كتاب العمدة ومنهج المؤلف فيه

في عام ١٩٤٣م قام الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد بتحقيق كتاب "العمدة" في محاسن الشعر وآدابه ونقده، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة في مصر وتونس قبل اصدار الطبعة التي اعتمدنا عليها اليوم في عام ٢٠٠٦م، من مكتبة دار الطلائع بالقاهرة، وفي هذه الطبعة تقول دار النشر:

يعد كتاب ابن رشيق العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده واحدا من أهم المنجزات النقدية العربية قديما، ويعد أيضا، موسوعة نقدية بالنظر إلى ما ألف قبله من كتب النقد الأدبي في المشرق وقetzak، كما يعد أشمل مؤلف في دراسة الشعر، إذ لا يقتصر على النقد، بل يتجاوزه إلى البلاغة وبعض الثقافات التراثية التي تعد- بحق- مفتاحا لدراسة الشعر العربي القديم وبخاصة الجاهلي^٦

لقد بذل صاحب التحقيق جهودا كبيرة في جمع مخطوطات هذا الكتاب، وفي مقابلة بعض نسخها ببعض، وفي ذلك يقول: "كم وجدت في هذه النسخ جميعها من أغليظ كانت تقتطرين في أكثر الأحيان إلى مراجعة الأمهات والأصول التي نقل عنها المؤلف، وإلى مراجعة دواوين الشعراء الكثيرة بنوع خاص"^٧.

وفي المقدمة أشار ابن رشيق إلى أنه ألف هذا الكتاب لأجل أبي الحسن، علي بن أبي الرجال، الكاتب الخطيب "زعيم الكرم، وواحد الفهم الذي نال الرياسة، وحاز السياسة، وانفرد بالسط والقبض، واتحد في الإبرام والنقص"^٨ وفي ذلك يقول:

إني لا أظهر حرفاً من كتابي هذا إلا عن أمره، وبعد إذنه، لأكون به أقوى ثقة، وله أشد مقعة، فإن وقع بموقع، وحل من قبوله في موضع، بلغت الإرادات، ورجوت الزيادات⁴ ولعل أهم ما دفع ابن رشيقي إلى تأليف هذا الكتاب - حسب رأينا - هو ما جاء في قوله:

وجدت الشعر أكبر علوم العرب، وأوفر حظوظ الأدب، وأحرى أن تقبل شهادته، وتمثل إرادته، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من الشعر لحكمة"، وري "الحكمة"، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته، يستتر بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم"⁵

يبدو أن ابن رشيقي يؤثر المنهج الفني في هذا الكتاب، حيث اعتمد على جمع ما قاله سابقوه في الشعر والنثر، وأورد عدة روايات كما سمعها من أساتذته وغيرهم، ثم رتب كل موضوع في باب محدد له، وبعد ذلك سجل آرائه الشخصية في كل موضوع، ولا شك أن احتواء الكتاب على سبعة ومائة باب مما تفصح عن نضوج التفكير النقدي لدى المؤلف، ولهذا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا بأن ابن رشيقي أراد أن يكشف اللثام عن منهجه الفني في هذا الكتاب ولذلك يقول:

عولت في أكثره على قريحة نفسي، ونتيجة خاطري، خوف التكرار، ورجاء الاختصار إلا ما تعلق بالخبر وضبطة الرواية، فإنه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه، ليؤتى بالأمر على وجهه، فكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه، ولا أحلت فيه على كتاب بعينه فهو من ذلك إلا أن يكون متداولاً بين العلماء، لا

يختص به واحد منهم دون الآخر، وربما نخلته أحد العرب، وبعض أهل الأدب، تسترا بينهم، ووقوعا دونهم، بعد أن قرنت كل شكل بشكله، ورددت كل فرع إلى أصله، وبيئت للناشئ المبتدئ وجه الصواب فيه، وكشفت عنه لبس الارتياب به، حتى أعرف باطله من حقه، وأميز كذبه من صدقه^{١١}.

ومن هنا يظهر أن ابن رشيق استفاد كثيرا عند كتابة هذا الكتاب من المصادر الأدبية المختلفة. ولهذا استطاع ابن رشيق مع كثرة هذه المصادر أن يعالج الموضوعات النقدية المتعددة بإبداء آرائه وشخصيته الفنية، إذ أظهر جرأته في إصدار أحكام نقدية من دون خوف من الجهر بها أمام آراء الأدباء والنقاد السابقين له، ولهذا قال:

ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيًا بعضه، وأنا
أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه، لا يحتاج
إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في
مواضع معروفة^{١٢}.

ولو تأملت هذه العبارة وسابقتها في بيان المقدمة لرأيت الخطة التي سلكها ابن رشيق في كتابه، وهي جمع ما قاله السابقون في الشعر وتسجيل خواطرهم في الأدب، وحصر كل موضوع في باب واحد، وضبط الروايات بالأناة والأمانة في الجمع والنقل.

أهم القضايا النقدية الواردة في الكتاب

١- أيهما أسبق وجود الشعر أم النثر؟

يلاحظ القارئ لكتاب العمدة أن ابن رشيق القيرواني يرجح وجود النثر قبل وجود الشعر، وحينئذ في ذلك ما في قوله: كان الكلام مشورا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطلب أعراقها، وذكر أيامها الصالحة، وأوطانها النازحة، وقرىها الأنياد، وسماتها الأسود، لنهر أنفسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على جسم الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موارس الكلام، فلما تم وزنه، سمود شعراء، لأهم شعروا به، أي فطنوا^{١٢} لم يزل الأدباء يختلفون حول هذه القضية، فكثر منهم يفتون موقفا مضادا لرأي ابن رشيق، وينتهيون إلى أن الشعر أسبق وجودا عند العرب من النثر، ومن هؤلاء الدكتور سيد قطب الذي يقول:

"يتأخر مولد النثر الفني عن مولد الشعر، لأن الإيقاع المنغم

المعشوم في الشعر يجعله مصاحب للتعبير الحبسي بالرقص عن

الانفعالات الحسية كما يجعله أقدر على تلبية التعبير الوجداني

بالغناء"^{١٣}

لعل ما يقوله ابن رشيق القيرواني هو أن النثر العلمي أمثال الحكم والأمثال والخطابة قد وجد قبل إبداع الشعر، أما النثر الفني الذي يشير إليه سيد قطب فهو من أنواع الكتابة الأدبية والديوانية فإنه جاء حسب تطور حياة الإنسان وتقديم العقل، سبق الشعر هذا النوع من النثر

٢- التكسب بالشعر

ينظر ابن رشيق القيرواني إلى أحوال الشعراء المتكسبين بالشعر وغير المتكسبين، ويقدر جهود بعضهم أمثال امرئ القيس وعلى بن جهم ونحوهما من الشعراء الذين لم يتكسبوا بشعرهم، ولم يقلوه رغبة في عطاء، أو رهبة من سلطان، وقال: "العرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنعه فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها بالشكر إعظاما لها^{١٤}، واستدل على أن التكسب هو الذي يؤدي إلى نقص قدر الشعراء وقال في شأن النابغة بأنه "مدح

الملوك، وقبل الصلة على الشعر، وخضع للنعمان بن المنذر، وكان قادرا على الامتناع منه بمن حوله من عشيرته، أو سار إليه من ملوك غسان، فسقطت منزلته، وتكسب مالا جسيما^{١٦}، يعد النقاد التكسب بالشعر عيبا في شخصية الشاعر، ولهذا أخذوا على أبي الطيب المتنبي مع شهرته المستفيضة وتقدمه في الشعر، لأن الملوك فتحوا له أبوابهم، وأغدقوا عليه أموالا طائلة، ولعل هذا مما أدى مروان بن أبي حفصة إلى أن يفخر بأنه لم يأخذ إلا من خليفة أو وزير،^{١٧} وقال في عدم تكسبه بالشعر:

وما الشعر مما أستظل بظله ** ولا زادني قدرا ولا حط من قدرى^{١٨}

٣- تنقل الشعر في القبائل العربية:

يتبع ابن رشيق قضية ذات علاقة بتاريخ الشعر العربي، إذ من الناس من يقدم أهل اليمن في الشعر، ويذهب إلى أن الشعر في الجاهلية بدأ بامرئ القيس، وفي الإسلام بدأ بحسان بن ثابت، ولعل إنهم استمدوا هذه الفكرة من آراء ابن سلام الجمحي الذي اعتمد عليه ابن رشيق في إصدار الحكم بأن الشعر تنقل بين قبائل العرب، فمن ربيعة انتقل إلى قيس، واستقر في تميم، وختم عند قبيلة، فإبن رشيق يقول: "افتتح الشعر بامرئ القيس، وختم بابن هرمة"^{١٩} إلا أن بعض الباحثين يعارضون هذه الفكرة، وبعضهم يؤيدونها، والشعر عندنا موهبة إلهية يؤتيها من يشاء من عباده

٤- موقف الإسلام من الشعر:

يزعم بعض الناس أن الإسلام يحارب الشعر والشعراء، فرد ابن رشيق هذه المزاعم، وأثار عقول الناس بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، ومواقفه مع كبار شعراء الإسلام، أمثال حسان بن ثابت، ثم استند إلى أقوال كبار الصحابة الكرام وموافقهم من الشعر والشعراء، ودعوتهم إلى تعلم الشعر وحفظه وروايته، وأشار إلى أمثال ما روى عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، حيث قالت: "مرّ الزبير بن العوام رضي الله عنه بمجلس لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وحسان ينشدهم، وهم غير آذنين، لما يسمعون من شعره، فقال: مالي أراكم غير آذنين لما

تسمعون من شعر ابن الفريعة ؟ لقد كان ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيحسن استماعه، ويجزل عليه ثوابه ولا يستغل عنه إذا أنشده، ومما يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ارغاء كرغاء البكر؟ فقال حسان: دعنى عنك يا عمر، فوالله إنك لتعلم لقد كنت أنشدكم في هذا المسجد من هو خير منك فما يغير عليّ ذلك، فقال عمر: صدقت. ثم قيل أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى ابى موسى الأشعري قائلاً: مُرْ مَنْ قَبْلَكَ بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى ومعرفة الأنساب"^{٢٠}، ذكر ابن رشيق في هذا الصدد بعض الأشعار التى نسبت إلى سيدنا عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أبى طالب، والحسن والحسين، ومعاوية رضى الله تعالى عنهم جميعاً ذلك ليدعم آرائه النقدية

٥- الشعر بين قدمه وحداثته:

تنبه ابن رشيق إلى آراء العلماء فى الشعراء القدماء والمحدثين، معتمداً على ما اشتهر فى زمانه، أن هناك مدرستين اثنتين للشعر العربى: الأولى مدرسة أبى عمرو بن العلاء التى وقفت مضادا عن الشعر المحدث، وكانت ترفض الشعر الأموي والعباسي، وتكره روايته وحفظه والاحتجاج به، بل لا تعد شعر أمثال جرير والفرزدق شعرا إلا ما جاء من الشعراء الجاهليين والمخضرمين يقول عمرو بن العلاء فى تحقير شعر جرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء الأمويين "لقد أحسن هذا المولد حتى همت أن أمر صبياننا برويته"^{٢١}

وسئل يوما عن المولدين، فقال: "ما كان من حسن فقد سبقوا إليه، وما كان من قبيح فهو من عندهم"، وأما الأخرى: فهي مدرسة ابن قتيبة التى ترى غلوا فى فكرة المدرسة الأولى، وتذهب إلى أنه "لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قلم حديث فى عصره" بعد هذا أشار ابن رشيق إلى ما يتميز به كل نوع، فشعر القدماء يتميز بقوة المعنى، وجزالة اللفظ وخشونة العبارة، إلا شذ فى شعر بعضهم كالأعشى أو النابغة لأنهما من الشعراء الذين عاشوا

خارج بيئة في حواضر شمال شبه جزيرة العرب ، وأما شعر المحدثين، فقد يتسم بجمال العبارة وعذوبة المعنى ورقة اللفظ، وكثرة البديع كما نرى في شعر مسلم ابن الوليد وأبي تمام وأكد ابن رشيق رأيه بقوله: "لو سلك المتأخرون مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم ووصف المهامة والقفار، وذكر الوحوش والحشرات مارويت"^{٢٢}

٦- أركان الشعر:

يذهب ابن رشيق إلى أن الشعر العربي يتكون من أربعة أركان، وهي اللفظ، والمعنى، والوزن والقافية، ويرى أن الوزن والقافية أعظم هذه الأركان، ولهذا قال:
الوزن أعظم أركان حد الشعر، وأولاها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة^{٢٣} رأى ابن رشيق في هذا الصدد لا يختلف كثيرا عن رأى قدامة بن جعفر البغدادي، إذ عرف الشعر بأنه: قول موزون مقفى

٧- أقسام الشعراء:

اعتمد ابن رشيق على عدة معايير في تقسيم الشعراء إلى أقسام مختلفة، وفي أول الأمر سار على منهج ابن سلام الجمحي في تقسيم الشعراء إلى أربع طبقات، وهي طبقة الجاهلية، وطبقة المخضرم، وطبقة المحدث الأول، وطبقة المحدث الثاني،^{٢٤} وفي موضوع آخر ذكر آراء الأدباء في أقسام الشعراء وأورد أشعارا كثيرة وأقوالا مختلفة كنماذج لآرائهم، وذكر رأى أستاذه عبد الكريم في تقسيم الشعر إلى أربعة أصناف وهي:

(١) شعر خير كله: وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على تمثل به بالأخير وما أشبه ذلك.

(٢) شعر شر كله: وذلك كالمهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس.

(٣) شعر ظرف كله: وذلك كالقول في الأوصاف، والنعوت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والآداب

(٤) شعر يتكسب به: وهو يؤمن إلى كل سوق، ويخاطب كل إنسان من حيث هو، ويأتي

إليه من جهة فهمه.^{٢٥}

وبعد ذلك أبدع فكرة جديدة، معتمدا على معايير الجودة والرواية، وذهب إلى أن الشعراء ينقسمون إلى أربعة وهي:

١- شاعر خنذيذ: وهو الذي يجمع إلى جودة شعره رواية الجيد من شعر غيره.

٢- شاعر مفلق: وهو الذي لا رواية له إلا أنه مجوّد كالخنذيذ في شعره.

٣- شاعر فقط: وهو فوق الرديء بدرجة.

٤- شعور: وهو لا شيء له.^{٢٦}

مما نلمس فس هذا الصدد أن ابن رشيق أورد جميع هذه الآراء ليبرهن لنا كثرة اطلاعه على عدة مصادر، وتضلعه في الفن النقدي، ولعل تقسيمه الشعراء إلى خنذيذ، ومفلق، وشاعر فقط وشعور، يرينا مدى تفوقه في التمييز بين الجيد والرديء، وطول ممارسته في العمل الأدبي، واستقلال شخصيته وذوقه النقدي.

٨- صفات الشاعر:

ذكر ابن رشيق عددا كبيرا من المؤهلات التي ينبغي أن يتصف بها الشاعر، وأشار إلى ما يرفع قدره، ويقربه إلى مصاف الشعراء الحقيقيين، وقال:

"ليستعمل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار، وضرب الأمثال، وليعلق نفسه ببعض انفسهم، ويقوى بقوة طباعهم، فقد وجدنا الشاعر من المطبوعين المتقدمين يفضل أصحابه برواية هذا، لأن الشعر إن خلا منهما لا يعد شعرا، أما الأركان الأخرى فيلتقى فيها الشعر، ومعرفة الأخبار، والتلمذة بمن فوقه من الشعراء".^{٢٧}

ليست هذه الشروط وحدها أمورا أساسية تجعل الأساند شاعرا، بل هناك العوامل العدة تسهل الطريق للإنسان إلى إنشاء الشعر وإتقانه والجودة فيه، ولعل الأصمعي من أعلام الأدب الذين ذكر بعض الأشياء لوجود الشاعرية في الإنسان ومما ذكر معرفة العروض والنحو وأيام العرب ونحو ذلك .

٩- اللفظ والمعنى:

اختلف العلماء النقاد - قديما وحديثا - حول اللفظ والمعنى، وكانت آراؤهم في هذا

الاختلاف تنقسم إلى ثلاثة:

الرأي الأول: يفضل اللفظ على المعنى ويؤثر عليه، وقيل: أن الجاحظ أول من تصدى بهذا

الرأي منذ القرن الثاني الهجري لقوله: "المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها

العجمي والعربي، والبدوي والقروي"^{٢٨} فهذا القول جعلوا الجاحظ رئيسا

لأنصار اللفظ.

الرأي الثاني:

فهو الرأي الذي يؤيد المعنى على اللفظ ويرجحه عليه، وقيل: أن رئيس هذه

الفكرة هو: عبد القاهر الجرجاني الذي قال: "هل يقع في وهم، وإن جهد، أن

تفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف

والنظم، بأكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، أو أن

تكون حروف هذه أخف وامتزاجها أحسن، ومما يكد اللسان أبعد، وهل تجد

أحدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن

ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا: لفظة

ممكنة ومقبولة، وفي خلافه، قلقة ونابية، ومستكرهة، إلا وغرضها أن يعبروا

بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناها، وبالقلق والنبو عن

سوء التلاؤم وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن

تكون لافقا للثانية في مؤداها"^{٢٩} بهذا القول ذهب النقاد إلى أن عبد القاهر

الجرجاني رئيس لأنصار المعنى

الثالث: فهو الرأي الذي لا يفضل جانبا على آخر، ويجعل التوسط بين الطرفين، ومن أبرز

أصحاب هذا الرأي ابن رشيق القيرواني الذي شبه اللفظ بالجسم والمعنى بالروح وقال:

إذا سلم المعنى، واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر

وخدمة عبده، كما يعرض بعض الأحساء من العرج
والشعر والعور، وما أشبه ذلك من غير أن تلعب
الروح وكذلك إن صعد المعنى، واحتل بعضه كان
اللفظ من غير ذلك أو غير حظ، كالمدى يعرض للأحساء
من المرض يعرض للأرواح، ولا تجد معنى يختل إلا من
جهة اللفظ وحريه فيه على غير الواجب وقد احتل
معنى كده وفسد، ففي مرات لا قائمة فيه، وإن كان
حسن الظلال في السمع وكذلك إن احتل اللفظ جهة
والأشياء لا يتضح به معنى^٢

حاول أن رتب أن يقد في الوسط بين الصوفيين، لينمك به دراسة جانب الحسن
فيهما أو جانب الدراسة عندهم، ويعر أن فنية قد سبق أن مثل هذا الرأي مما أتاحت الفرصة
لأن رتب أن يتبع محال، وأن يجيد رأيي، سوى أن عددا كبير من النقاد المعاصرين ما زالوا
بأحدون على أن فنية في هذا الشأن خجعة أن رؤيته تتسم بتأقية تفصل الشكل عن المضمون في
الشعر^٣ ومن الشعراء من يؤثر اللفظ على المعنى، فيجعله غايته القصوى، كابن هاني الذي
يقول:

أصاحت، فقالت وقع احرد منيظم^{**} وسأمت، فقالت لمع أيض محظم

وما ذعرت إلا لجرس جليها^{**} ولا رمقت إلا يرى في محظم^(١)

نرى أنه ليس تحت هذين البيتين معنى كبير يشار إليه.

١٠- الطبع والصنعة:

عرض ابن رشيق لفكرة الطبع والصنعة في الشعر العربي، كما عرض لها الجاحظ وابن قتيبة وغيرهما من النقاد السابقين، ولكن المعاصرين يذهبون إلى أن الشعر في أي زمان أو مكان لا يخلو من الصنع. وابن رشيق واحد من النقاد القدامى الذين لهم موقف في قضية الطبع والصنعة، يذهب كما يذهب بعض القدماء إلى أن الصنعة تبدو كثيرا في شعر المحدثين، ولكنها ليست بعيب إذا جاءت عفوا من دون تكليف ولهذا أبدى رأيه في شعر عبد الله بن المعتز وقال: "إن صنعته خفية، لطيفة، لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير به قالوا الشعر"،^{٣٢} ولئن دل هذا علي شيء فإنما يدل علي أن ابن رشيق لا ينظر إلي قضية الطبع والصنعة كما ينظر إليها الجاحظ في بعض الأحيان، حيث ذهب شوقي ضيف إلي الجاحظ كلما يصف الشاعر العربي بالطبع فإنه يريد الدفاع عن العرب والرد علي الشعوبية^{٣٣}

تناول ابن رشيق قضية الطبع و الصنعة كثيرا في كتابه، وتداولها باصطلاحات متعددة، و هذا لايعني أنه يسعى وراء الألفاظ الديباجية أو العبارات البديعية، و قد أشار في ذلك إلي موقف العرب و قال:

العرب لا تنظر في أعطاف شعرها، بأن تجانس أو تطابق، أو تقابل
فتترك لفظة للفظ، أو معني لمعني كما يفعل المحدثون، ولكن
نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعن وإبراده، واتقان
بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض^{٣٤}

من هنا نفهم أن درجات الجودة عند ابن رشيق تختلف تبعا لقوة الموهبة أو ضعفها، وكان ينظر إلي فصاحة الكلام وجزالته في اصدار الحكم، ويؤثر معني دون آخر في التمييز بين الطبع والصنعة

١١- السرقات الأدبية:

تشغل مسألة السرقة جزءا كبيرا في النقد العربي، بدأ النقاد العرب يهتمون بالمسألة منذ قيام المعارك الأدبية حول تحديد الشعراء المحدثين في الأدب العربي بعامه، والخصومات الأدبية التي دارت حول أبي تمام والبحترى ثم من بعده حول المتنبي بخاصة^{٣٥}

ولعل هذه المسألة بدأت في العصر العباسي ببداية مشكلة الطبع والصنعة بين القدماء والمحدثين، ومن هنا كان من مهمات الأدباء النقاد في العصر العباسي وبعده أن يتناولوا مسألة السرقة في شعر الشعراء، وعندما يناقش ابن رشيق هذه المسألة نراه يراجع دراسات السابقين لسرقات الشعراء، أمثال أبي هلال العسكري، والجرجاني القاضي وعبد القاهر، والحائمي ونحوهم، ولذلك نراه ينسب إلى أهمية هذه المسألة معتمدا على رأي الجرجاني حيث قال:

ولست تعدّ من جهابذة الكلام ولا من نقاد الشعر حتى
تميز بين أصنافه وأقسامه، وتخيّل علما برتبة ومنازله،
فتفصل بين السرقة والغصب وبين الإغارة والاختلاس،
وتعرف الإمام من الملاحظة، وتفرق بين المشترك الذي
لا يجوز ادعاء السرقة فيه والمبتذل الذي ليس واحد أحق
به من الآخر، وبين المختص الذي حازه المبتدئ فملكه
واجتهاد السابق فاقتطعه^{٣٦}

أورد لنا ابن رشيق هذه الفكرة ليلفت أنظارنا إلى خطورة موضوع السرقات في الأدب
مضى حتى لا نأخذ السرقة على من ليس بسارق، ولزيادة الإيضاح في ذلك يسلط ضوءا كاشفا
على جميع الاصطلاحات النقدية الواردة في النص السابق وغيره، واستشهد بأقوال الأدباء وأشعار
شعراء ليبرهن لنا موقفه النقدي وقوته الفنية، ومن أهم السرقات التي أشار إليها نظم النثر
قول ابن عبد القدوس:

إذا وترت امرا فاحذر عدواته ** من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً

أخذه من قول سيدنا عيسى عليه السلام: تعلمون السيئات وترجون أن تجازوا عليها
بمثل ما يجازى به أهل الحسنات، أجل، لا يجنى من الشوك العنب^{٣٧}

ومما قال: قد يتفوق المتبع على المبتدع كأبي نواس في قوله:

أقول لناقتي إذا بلغتني ** لقد أصبحت مني باليمين

فلم أجعلك للغرباء فخلا ** ولا قلت "أشرفي بدم الوتين

أخذه من قول الشماخ:

إذا بلغتني وحملت رحلي ** عرابة فأشرفي بدم الوتين^{٣٨}

ومما قال أيضا:

وقد يتساويان كقول امرئ القيس:

فلو أنهما نفس تموت جميعة ** ولكنها نفس تساقط أنفسا^{٣٩}

ثم قال عبدة بن الطبيب:

فما كان قيس هللكه هلك واحد ** ولكنه بنيان قوم تهدما^{٤٠}

ثم أشار ابن رشيق إلى أن هناك ما يعد سرقا وليس بسرقة، إنما هو اشتراك اللفظ المتعارف كقول
عنتر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ** عليها الأسد تقتصر اختصارا^{٤١}

وقول عمرو بن مدى كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل ** تحية بينهم ضرب وجيع^{٤٢}

وقول الخنساء ترثي أخاها صخر:

وخيل قد دلفت لها بخيل ** فدارت بين كبشيتها رحاها^{٤٣}

ومثله :

وخيل قد دلفت لها بخيل ** ترى فرسانها مثل الأسود^{٤٤}

ومن هنا نلمس أن ابن رشيق يؤمن كما يؤمن قبله عدد من النقاد القدماء كالقاضي

الجرجاني، بأن السرقات ليست مسألة مستحدثة في العصر العباسي، وإنما كانت تدور بين الشعراء ونقادهم في العصور الغابرة، إذ قال القاضي الجرجاني "السرقه أيدك الله داء قلم وعيب عتيق"^{٤٥}

لا ينبغي قول أنها انتشرت وقويت في العصر العباسي وبدقة النظر على رأي ابن رشيق القيرواني، ذهب بعض النقاد المعاصرين إلى أن رأيه أشه شيء برأي أبي هلال العسكري في نفس المسألة وكل ما يتميز به رأي ابن رشيق هو زيادة بعض التوضيحات واختلاف الشواهد في بعض المواضع، وترجيح بعض الآراء بوجهات نقدية تؤكد تملكه لحس نقدي أصيل^{٤٦}

الملحوظات:

يعد كتاب العمدة من أهم كتب النقد العربي، ومن أدقها في نقل النص وإحالة إلى صاحبه، جمع المؤلف فيه آرائه الشخصية وآراء النقاد السابقين له، ولا يعني هذا تبرئة الكتاب من بعض أخطاء فنية، وفيما يأتي إشارة إلى ملحوظاتنا:

الملحوظة الأولى:

يعرض ابن رشيق رأيه النقدي بطريقة سليمة معتدلة من دون تكبر على رأي العلماء الآخرين، ومن أساليبه في هذا: "زعم بعض الناس، قال بعض أهل الأدب، رأى بعض العلماء" ثم يأتي برأيه في نقد الموضوع.

الملحوظة الثانية:

يحرص ابن رشيق على التحقق والتأكد قبل إصدار الحكم النقدي، أما ما لم يقف على حقيقته فيقول: أظن أو أرجح كشأنه في قول الفرزدق عندما جاء رجل إلى الحسن البصري يسأله عن نكاح السبايا قبل تطليقهن - وكان الفرزدق في المجلس - فقال: قد قلت أمثل هذا في شعري، فقال الحسن: وما قلت؟ قال قلت:

وذا حليل أنكحتنا رماحنا ** حلال لمن بيني بها لم تطلق^{٤٧}

فقال الحسن: صدق

وعلق ابن رشيق على هذا فقال: وأظن الفرزدق -والله أعلم- أراد الجهاد في العدو والمخالف للشرعية، لكن أراد مذهب الجاهلية في السبايا، كأنه يشير إلى العزة وشدة البأس.^{٤٨}

الخاتمة

يتضح لنا فيما سبق أن ابن رشيق القرواني عرض لأفكار النقد الأدبي المختلفة، وكشف النقاب عن الاصطلاحات النقدية العديدة، وأظهر جرأته الأدبية التي أكسبت له الترحب والقبول لدى الدارسين عبر العصور. و في الحقيقة إن هذه المقالة عبارة عن دراسة تحليلية لكتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" الذي يحتوي علي الآراء النقدية عند العرب من الجاهلية إلى العصر الذي عاش فيه المؤلف، وقد لا نبالغ إذا قلنا أن هذا الكتاب أسهم كثيراً في تطور النقد العربي القديم والحديث، ولهذا ندعو العاملين في حقل دراسة النقد العربي في نيجيريا إلى اهتمام كبير بكتاب العمدة، لعل ذلك الاهتمام يساعدهم عند عملية التمييز بين الجيد والردئ، كما ندعو إخواننا دارسي اللغة العربية في نيجيريا و السنغال وغيرهما إلى البحث العميق عن تأثيرات ابن رشيق القيرواني في الآداب العربية ببلادهم، لأن ذلك يفتح باباً جديداً لربط أدبنا العربي في افريقيا السمراء بالأدب العربي في بلاد العرب.

هوامش البحث

- ١- محمد المصري: مناهج التأليف عند العرب في مقدمات كتب التراث العربي، الجزء الأول، ط ١، ١٩٩٠م، دار المنازجدة، السعودية، ص ١٥٧
- ٢- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ١٩٤٣م، درا الطلامع ص: ١٥
- ٣- محمد المصري: المرجع السابق، ص ١٥٧
- ٤- د. حسن محمد حسن عازل: البحث الأدبي أسسه ومناهجه، مكان النشر وتاريخه غير مذكورين، ص: ١١٩
- ٥- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: المرجع السابق، ص: ١١
- ٦- المرجع نفسه، ص: ٤

- ٣١- د. عيسى علي العاكوب: التفكير النقدي عند العرب، درا الفكر المعاصر بيروت - لبنان، الطبعة الخامسة ١٩٩٧م، ص: ١٥٥
- ٣٢- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: المرجع السابق، ص: ١٣
- ٣٣- د. شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة الأولى مصر دار المعارف (بدون تاريخ) ص: ١٤٧
- ٣٤- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: المرجع السابق، ص: ١٢٩
- ٣٥- ا.د. صلاح الدين محمد عبد التواب: الخصومات الأدبية، الوساطة بين المتني وخصومه للقاضي الجرجاني نموذجاً مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٧م ص: ١١٣
- ٣٦- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتني وخصومه، تحقيق وشرح محمد ابن الفضل إبراهيم و علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة. ١٩٦٦م ص: ١٨٣
- ٣٧- أبو علي الحسن بن رشيق القرواني: المرجع السابق، الجزء الثاني، ص: ٢٩٤
- ٣٨- المرجع نفسه، ص: ٢٥٢
- ٣٩- المرجع نفسه، ص: ٢٤٠
- ٤٠- د. أحمد يوسف خليفة: مصادر الأدب و النقد، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٥م ص: ١٠٧
- ٤١- أبو علي الحسن بن رشيق القرواني: المرجع السابق، ص: ٢٥٢
- ٤٢- المرجع نفسه، ص: ٢٥٣
- ٤٣- المرجع نفسه، و الصفحة نفسها
- ٤٤- المرجع نفسه، و الصفحة نفسها
- ٤٥- القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني: المرجع السابق، ص: ٢٠٨
- ٤٦- د. أحمد يوسف خليفة: المرجع السابق، ص: ١٠٧
- ٤٧- أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: المرجع السابق، ص: ٤٧
- ٤٨- المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

مجلة أنيتا

للدراسات العربية والإسلامية

إصدار قسم الدراسات
العربية والإسلامية

جامعة ولاية كوفي

المجلد السادس، العدد الأول ١٤٣٤/٢٠١٣